﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جـوابُ فرعـون لمـوسى عليه السلام مُعلِنٌ عن عنادِ فرعونَ وسَذاجَةِ قومه

بعد أن عرضتِ الآيةُ السّابقةُ مضمونَ الخطابِ العقلانيِّ الهادئ الَّذي استدلَّ فيه موسى عليه السلام على صدْقِهِ بعِلم اللّه برسله، وعاقبة من يُمكَّن لهم في الأرض، ومصير من يسعى فيها ظُلمًا؛ جاء جوابُ فرعونَ لهذا التَّرغيب والتَّرهيب والإعذار، مُعلِنًا عن غَطْرَسَته وكِبريائه ومعاندته للحقِّ، وعن استخفافه بقومه المُطيعين له، بأنِ ادَّعى أنَّه لا إلهَ لهم غيرُه، ثمَّ أمر وزيرَه هامان أن يبنيَ له صرحًا شامخًا ليصعدَ عليه، فيطَّلعَ على إله موسى، وهو يقطَعُ أنَّه غيرُ موجود، وهكذا كانت عادتُه - كُلَّما أظهر موسى عليه السلام دليلًا قاطعًا وبُرهانًا ساطعًا - أن يُقابلَه بادِّعاءٍ كاذب، وجوابٍ ساذِج، ليوقِفَ قومَه عن الإيمان إلى حينٍ، وما ذلك إلّا لأنَّهم كانوا في غاية الغباوة والعراقة في الميل إلى الباطل، والنَّفرة من الحقِّ، وترجيح المظنَّة على المئنَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: (ملي / ملأ) أصلٌ يدلُّ على المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ، يُقالُ: مَلَأْتُ الشَّيْءَ أَمْلَؤُهُ مَلْئًا، والمِلْءُ: الاسْمُ لِلْمِقْدارِ الَّذي يُمْلَأُ، وسُمِّيَ لأنَّه مُساوٍ لِوِعائِهِ في قَدْرِهِ[2]، ويقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعظَّمٌ عندَ مَنْ رآهُ، كأنَّهُ ملأ عينَهُ مِنْ رؤيتِهِ[3]، والمَلَأُ: الأشرافُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 294.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).
(3) الراغب، المفردات: (ملأ).

سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم يملؤونَ القُلوبَ هَيْبةً، والعُيونَ جلالةً[1]، وقيل: سمّوا ملأً؛ لأنَّهم مليؤون بما يُراد منهم[2]، وقيلَ: الملأُ جماعةٌ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العُيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بَهاءً وجلالًا، ومالَأْتُهُ: عاونتُهُ وصِرْتُ مِنْ مَلَئِهِ، أي: جَمْعِهِ[3]، والمرادُ بالملأِ في خطاب فرعونَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾: أشرافُ قومِهِ.

2) ﴿فَأَوْقِدْ﴾: (وقد) أصلٌ يدلُّ على اشتعالِ نارٍ[4]، يقالُ: وقدَتِ النّارُ تَقِدُ وُقودًا ووَقْدًا[5]، والوَقودُ يقالُ للحَطَبِ المجعولِ للوُقودِ، ولِما حصلَ مِنَ اللهبِ، قالَ ﷻ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، وقالَ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ [البروج: 5]، ويقالُ: أوقدتُ النّارَ، واستوقدتُها، قالَ تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ﴾[6].

3) ﴿ٱلطِّينِ﴾: (طين) كلمةٌ واحدةٌ معروفة[7]، فالطّينُ هو التُّرابُ والماءُ المُختلِطُ، وقد يُسمَّى بذلكَ وإنْ زالَت عنهُ قوَّةُ الماءِ، قالَ ﷻ: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصّافات: 11][8].

4) ﴿صَرْحًا﴾: (صرح) أصلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِهِ، ومِنْ ذلكَ: الشَّيءُ الصَّريحُ، ويقالُ: صرَّحَ بما في نفسِهِ؛ إذا أظهرَهُ[9]، ولَبَنٌ صريحٌ أي: خالصٌ، والصَّرْحُ: القَصْرُ والبناءُ المرتفعُ، فهو ظاهرٌ بارزٌ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾[10].

5) ﴿أَطَّلِعُ﴾: (طلع) أصلٌ يدلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ، يقالُ: طلعتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا[11]، والمَطْلَعُ: موضعُ الطُّلوعِ، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الكهف: 90]، واطَّلَعَ: طلع، ونظر، وفي التَّنْزيل العَزيز: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصّافات: 55]، واطَّلع عَلى الأمر: علِمَه، وعَلى الشَّيْء: أشرف عَلَيْهِ، وإلَيْهِ: تطلَّع ونظر ليعرِفَهُ، وللأمر: قويَ عَلَيْهِ، وسيطر، واطَّلع الأمرَ: علمَهُ، وأدْرَكَ أسراره، وفي التَّنْزيل العَزيز:

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: (ملأ).
(2) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (الملأ).
(3) الراغب، المفردات: (ملأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وقد).
(5) الجوهري، الصحاح: (وقد).
(6) الراغب، المفردات: (وقد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طين).
(8) الرّاغب، المفردات: (طين).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صرح).
(10) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صرح).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: 78][1]، ومعنى الاطِّلاع في الآية: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: لعلّي أصعَدُ لِأنظُرَ إليه، تعالى اللّهُ عُلوًّا كبيرًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مكابرةُ فرعونَ، وفَرْطُ طُغيانِهِ، وطَلَبُهُ بناءَ الصَّرح ليطَّلع إلى الله ﷻ

قالَ فرعونُ لأشرافِ قومِهِ وسادتِهم: ما علمتُ لكُم مِنْ إلهٍ غيري، فاعبُدوني، ولا تُصدِّقوا قولَ موسى فيما جاءَكم بهِ، مِنْ أنَّ لكُم ربًّا غيري، وأمَرَ وزيرَه هامان: أن أوقِد لي على الطّين، واصطنع لي بالآجُرِّ بناءً عاليًا؛ لعلّي أصعدُ إلى إله موسى الَّذي يعبُدُهُ، ويدعو إلى الإيمان به وعبادتِهِ، وإنّي لأظنُّ موسى كاذبًا فيما يزعم من وجود إلهه من الأساس[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ الجملة:

استخفافُ فرعونَ قومَهُ بعدَ سماعِهِم حُجَجَ موسى عليه السلام

كلامُ فرعونَ المحكيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ واقعٌ في مقامٍ غيرِ مقامِ المُحاوَرةِ معَ موسى، فهو كلامٌ أقبلَ بهِ على خطابِ أهلِ مجلسِهِ إثرَ المُحاوَرةِ معَ موسى؛ فلذلكَ حُكيَ بحرفِ العطفِ، وهو مِنْ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فهذه قصَّةُ مُحاوَرةٍ بينَ فرعونَ ومَلَئِهِ في شأنِ دعوةِ موسى عليه السلام، فهي حقيقةٌ بحرفِ العطفِ[3].

بلاغةُ النِّداءِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾:

اهتمامُ فرعونَ بادِّعائِهِ الأُلوهيَّةَ ضلالٌ وغرور

جيءَ بالنِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، واستُعمِلَتْ فيهِ (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ،

(1) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (طلع).
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 581.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.

وجيءَ معَها بهاءِ التَّنبيهِ؛ إشارةً إلى شدَّةِ اهتمامِ فرعونَ بمُناداةِ مَلَئِه، ولَفْتِ انتباهِهم للكلامِ الَّذي سيُلقيهِ عليهِم؛ لأنَّهُ كلامٌ مُهِمٌّ يتعلَّقُ باستعبادِهِ لهُم، وادِّعائِهِ الأُلوهيَّةَ، وتكذيبِهِ لموسى ﷺ، وقد ناداهُم بوصفِ الملأِ، أي: الأشراف؛ تعظيمًا لهُم، واستجلابًا لقلوبِهم[1].

سرُّ تخصيصِ الملأِ بالنِّداءِ:

ملأُ فرعونَ هم أشرافُ قومِهِ، وأهلُ مَشورتِهِ، وخاصَّة خاصَّته

خصَّ فرعونُ الملأ بالنِّداءِ في قولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾؛ لأنَّ الملأ هم أشرافُ النّاسِ الَّذينَ يَنوبونَ مَنابَ الجميعِ[2]، وهو قد نادَى أعيانَ قومِهِ الَّذينَ هم أهلُ مجلسِهِ ومُستشاروهُ[3]، وإنَّما عقَّب فرعونُ خطابَ موسى ﷺ بهذا النِّداء؛ خشيةَ أن يتأثَّروا بدعوته، فأراد أن يُذكِّرَهم بألوهيَّتِهِ[4]، وأنَّ عليهم رفْضَ دعوتِه بالكليَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي المنفيِّ ﴿مَا عَلِمْتُ﴾:

مبالغةُ فرعونَ في نفي العلم بألوهيَّةِ إلهٍ غيرِهِ؛ تسفيهًا وإضلالًا

جيءَ بصيغةِ الماضي المنفيِّ لفعلِ العلم في قولِ فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾؛ للدَّلالةِ على مبالغةِ فرعونَ في نفي العلم بألوهيَّةِ غيرِه، حيثُ جعلَ عدمَ العلم مُستغرِقًا للزَّمانِ الماضي، وذلكَ يدلُّ على تيقُّنِه ممّا يقولُ، وأنَّهُ لا يُساوِرُهُ شكٌّ في ذلكَ، ولذلكَ لم يقل: (لا أعلمُ)، وذكر النَّسفيُّ أنَّه قصد بنفي علمه بإلهٍ غيرِه: نفيَ وجودِه، أي: (ما لكم مِن إلهٍ غيري)، أو هو على ظاهره، وأنَّ إلهًا غيرَه غيرُ معلوم عنده[5].

دلالةُ اللّامِ في شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

ألوهيَّةُ فرعونَ المزعومةُ مختصَّةٌ بقومِهِ المعترفين له بذلك

اللّامُ في قولِهِ ﷻ حكايةً عن فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ للملكِ والاستحقاقِ، وفيها دلالةٌ على أنَّ ألوهيَّةَ فرعونَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 294.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 258.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 258.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 18/ 926.
(5) النّسفيّ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 644.

المزعومةَ مختصَّةٌ بقومِهِ، ومفاد هذه العبارة قولُهُ لهم: (أنا وحدي إلهُكم ومعبودُكم، ولو كان ثَمَّ إلهٌ غيري؛ لعلمته)، وهو لم يقل: (ما لكم من إله غيري)، بل تمثَّل في صورة الورِع، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وما ذلك إلّا لأنَّه عندهم العالِمُ الفاضل، الذي مهما قال؛ فهو الحقُّ، ومهما أمر؛ أطاعوه[1].

سرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

قُدِّمَ شبه الجملة ﴿لَكُم﴾ على ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ - مفعولِ ﴿عَلِمْتُ﴾ - في قولِ فرعون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾؛ للتَّنبيهِ على فَرْطِ حرصِ فرعونَ على إثباتِ ألوهيَّتِهِ لقومِهِ، والعنايةِ باستعبادِهِ لهُم، حيثُ جعلَ عدمَ علمِهِ بألوهيَّةِ غيرِهِ مُتعلِّقًا بهم.

شـــدَّةُ حـرصِ فـرعـونَ على استعبادِ قومِهِ والاستيلاءِ على عقولهم

معنى ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾:

عُبِّرَ بـ﴿مِّنْ﴾ في قولِهِ تعالى حكاية عن فرعونَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، ولم يقل: (ما علمتُ لكم إلهًا غيري)؛ لأنَّ ﴿مِّنْ﴾ صلةٌ، فتفيدُ توكيدَ النَّفي المستفادِ مِنْ ﴿مَا﴾، والإغراقَ فيه[2]، فأوهمَ فرعونُ بذلكَ أنَّهُ قد استقصَى في البحثِ والتَّنقيبِ عن إلهٍ غيرِهِ، فلم يعلمْهُ.

انـتـفـاءُ ألـوهـيَّـةِ غـــيرِ فـرعـــونَ مُـؤكَّـدٌ في زعـمِـهِ المتهافِت

غرضُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهٍ﴾ ووصفِهِ بـ﴿غَيْرِى﴾:

يدلُّ تنكيرُ ﴿إِلَٰهٍ﴾ في قول فرعونَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ على تعميمِ نفيِ الآلهةِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفي تعمُّ، كما يدلُّ وصفُ ﴿إِلَٰهٍ﴾ بـ﴿غَيْرِى﴾ على إثباتِ فرعونَ الألوهيَّةَ لنفسِهِ فيما يزعم[3]، وقد أرادَ بخطابِهِ معَ مَلَئِهِ أنْ يُثبِّتَهم على اعتقادِ إلهيَّتِهِ، والمقصودُ بنفيِ وجودِ إلهٍ غيرِهِ: نفيُ وجودِ الإلهِ الَّذي أثبتَهُ موسى، وهو اللهُ تعالى، الإلهُ الحقُّ وخالقُ الجميعِ، وأمّا آلهتُهم الَّتي

تـثـبـيـتُ فـرعـونَ قومَهُ على عقيدةِ إلهيَّتِهِ المزعومة

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 616.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 294.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 599.

يزعمونَها؛ فإنَّها ممّا تقتضيهِ إلهيَّةُ فرعونَ؛ لأنَّ فرعونَ عندَهم هو مُظهِرُ الآلهةِ المزعومةِ عندَهم؛ لأنَّهُ في اعتقادِهم ابنُ الآلهةِ[1].

بلاغةُ الكنايةِ في الآية الكريمة:

جعَلَ فرعونُ عدمَ علمِهِ بإلهٍ غيرِهِ علامةً على عدمِ وجودِهِ

في قولِهِ ﷻ حكايةً عن فرعونَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ فرعونَ قد قصدَ بنفيِ علمِهِ بإلهٍ غيرِهِ نفيَ وجودِهِ؛ تنزيلًا نفسَهُ الحقيرةَ منزلةَ علّامِ الغيوب، الذي لا يعزُب عنه شيءٌ موجود، فقد عبَّر اللّه تعالى عن نفي الوجود بنفي علمه به، كما في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 18]، فإنَّ معناهُ: (بما ليسَ فيهنَّ)، وذلكَ لأنَّ علمَهُ سبحانه تابعٌ للمعلوم، لا يتعلَّقُ بهِ إلّا على ما هو عليهِ، فإذا كانَ الشَّيءُ معدومًا؛ لم يتعلَّقْ بهِ موجودٌ[2].

وأمّا علمُ الخلق؛ فلا تلازُمَ بين نفي وجود الشَّيء ونفي العلم بوجوده، كما لا تلازُمَ في إدراكهم بَين الوجود والعلم بالموجود، لكنَّ فرعونَ فرَّع على ادِّعائه الألوهيَّةَ ادِّعاءَ شموليَّةِ علمِهِ، فأوهمَ ملأه أنَّ علمَهُ قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ موجودٍ، فلو كانَ ثمَّةَ إلهٌ غيرُهُ؛ لَعَلِمَهُ، تدليسًا عليهم، واستخفافًا بعقولهم[3].

ويجوزُ أنْ يكونَ غيرَ معلومٍ عندَهُ إلهٌ لهُم، ولكنَّهُ مظنونٌ، فيكونُ النَّفيُ على ظاهرِهِ، ويدلُّ على ذلك قولُهُ آخرَ الآية: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[4].

بلاغةُ الاستئنافِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَوْقِدْ﴾:

غرضُ الأمرِ إظهارُ فرعونَ نفسَهُ في صورةِ المتُطلِّبِ للحقِّ

لمّا بيَّن موسى ﷺ أنَّ الإلهَ الحقَّ هو ربُّ السَّمواتِ؛ حسِبَ فرعونُ أنَّ مملكةَ هذا الرَّبِّ السَّماءُ تصوُّرًا مُختلًّا، ففرَّعَ على نفيِ وجودِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 121.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 413.
(3) ابن المنير، الانتصاف: 2/ 163، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 413، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 306.

إلهٍ غيرِهِ لقومِه، وعلى توهُّمِ أنَّ الرَّبَّ المزعومَ مَقَرُّهُ السَّماءُ؛ أن أمرَ هامانَ وزيرَهُ أنْ يبنيَ لهُ صرحًا يَبْلُغُ بهِ عنانَ السَّماءِ؛ ليرَى الإلهَ الَّذي زعمَهُ موسى، حتَّى إذا لم يَجِدْهُ؛ رجعَ إلى قومِهِ، فأثبتَ لهُم عدمَ وجودِ إلهٍ في السَّماءِ إثباتَ معاينةٍ، فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وأرادَ بذلكَ أنْ يَظهرَ لقومِهِ في مظهرِ المُتطلِّبِ للحقِّ، المُستقصي للعوالمِ، حتَّى إذا أخبرَهم بعدَ ذلكَ بأنَّ نتيجةَ بحثِهِ أسفرَتْ عن كذبِ موسى عليه السلام؛ ازدادوا ثقةً ببطلانِ قولِ موسى عليه السلام[1].

دلالةُ الأمرِ في الفعل ﴿فَأَوْقِدْ﴾:

كِبْرياءُ فرعونَ يُصدِرُ الأوامرَ؛ ظنًّا أنَّه الإلهُ الآمرُ

صيغةُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾؛ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ فيها، ولا صارفَ عنهُ هنا، بل مقامُ الاستعلاءِ وإظهارِ العظَمةِ والنُّفوذِ وسَعَةِ القدرةِ يقتضيهِ، "وفي هَذا الضِّغْثِ مِنَ الجَدَلِ السَّفسطائيِّ مَبْلَغٌ مِنَ الدَّلالَةِ عَلى سوءِ انْتِظامِ تَفْكيرِهِ وتَفْكيرِ مَلَئِهِ، أوْ مَبْلَغُ تَحَيُّلِهِ وضَعْفِ آراءِ قَوْمِهِ"[2].

دلالةُ اللّامِ وغرَضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لِي﴾:

شـدَّةُ عنايةِ فرعونَ بتنفيذِ أوامرِهِ الغريبة

اللّامُ في ﴿لِي﴾ للملْكِ والاستحقاقِ، وقد أضافَ فرعونُ الإيقادَ إلى نفسِهِ؛ إعلامًا بأنَّهُ لا بدَّ منهُ[3]؛ لأنَّهُ أمرٌ بشيءٍ يتعلَّقُ بهِ، وقدَّمَ ﴿لِي﴾ في قولِهِ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ اعتنائِهِ بالمبادرةِ إلى تنفيذِ أمرِهِ بالإيقادِ على الطّينِ، بحيثُ لا يكونُ في التَّنفيذِ تأخيرٌ ولا تَوانٍ.

بلاغةُ النِّداءِ بـ ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾:

تعاظُمُ فرعونَ بتجبُّرٍ، مُسفِرٌ عن طغيانِه والتكبُّر

لمّا كانَ فرعونُ مُنغمِسًا في مقامِ التَّجبُّرِ والكِبْرياءِ والعظَمةِ، والحَميَّةِ لألوهيَّتِهِ المزعومةِ؛ صدرَ منهُ مِنَ الكلامِ ما يدلُّ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 121.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 122.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.

تعظيمِهِ لنفسِهِ، وتجبُّرِهِ على قومِهِ، وذلكَ أنَّهُ أمرَ بحسَبِ الظّاهرِ هامانَ - وهو وزيرُهُ - بالإيقادِ على الطّينِ، وناداهُ باسمِهِ، فقالَ: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾[1]، ولم يقل: (يا وزيري)، أو (أيُّها الوزيرُ)، أو (يا أيُّها الوزيرُ)، أو نحوَ ذلكَ ممّا يُشعِرُ بتعظيمِ هامانَ، واختصَّهُ مِنْ بينِ الملأِ بالنِّداءِ[2]، معَ أنَّهُ كانَ حاضرًا بينَهم، وداخلًا في الخطابِ، بل هو المُخاطَبُ الأوَّلُ؛ لكونِهِ وزيرَهُ، فلم يقل: (فأوقِدوا لي)، بل قالَ: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي﴾، ثمَّ أتى بـ (يا) الدّالَّةِ على البعيدِ، وكلُّ ذلكَ إظهارٌ للكِبْرياءِ؛ لأنَّ (يا) في مِثلِ هذا المقامِ تبعيدٌ للمُنادَى، وإيذانٌ بالتَّهاونِ بهِ[3].

سرُّ تأخيرِ النِّداء عن صدر الكلام:

تعاظُم فرعونَ في نفسه منَعَه من تقدير هامانَ وزيرِه

أخَّر فرعونُ النِّداءَ إلى وسطِ الكلامِ المأمورِ بهِ[4]، في قوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ﴾، ولم يقل: (يا هامانُ أوقِدْ لي)، والمعهودُ في النِّداءِ أنْ يُنادَى الرَّجلُ أوَّلًا، ويُنبَّهَ، ويوقَظَ عن سَنَةِ الغفلةِ، ثمَّ يُؤمَرَ، وقد خالفَ المعهودَ بتأخيرِ نداءِ المأمورِ عن الأمرِ، اهتمامًا بالمأمورِ به واستعجالًا لتنفيذه، وتهوينًا أيضًا للمأمورِ بتأخيرِ ذكرِهِ، وتعظُّمًا عليهِ[5]، ولو قدَّمَ النِّداءَ؛ لزمَ أنْ يقدِّمَ ذكرَ هامانَ على ذكرِ نفسِهِ، ولم يَرْضَ بهِ تعظُّمًا[6].

دلالةُ ﴿عَلَى﴾:

بيانُ شدَّةِ النّارِ المطلوبِ إيقادُها على الطّينِ

يدلُّ حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ حكايةً عن فرعونَ: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ على أنَّ المرادَ بالطّينِ: اللَّبِنُ، أي: اتَّخِذْ لَبِنًا، واصنعْ آجُرًّا؛ إذ الإيقادُ المُستعلي على الطّينِ يستلزمُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 600.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 600.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 63.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 415.
(5) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 523.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 6/ 451.

كونَهُ آجُرًّا[1]، وفي هذا الاستعلاءِ دليلٌ على شدَّةِ النّارِ المطلوبِ إيقادُها، فهي تَسْطو على الطّينِ مِنْ تحتِهِ، ومِنْ جميعِ جوانبِهِ، بل تستعلي عليهِ مِنْ فَوْقِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالإيقادِ على الطّينِ:

لفظةُ الطّينِ أخفُّ وأفصحُ، وهي المناسبة لهذا السّياق

إنَّما قالَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، ولم يقل: (اطبُخْ ليَ الآجُرَّ واتَّخِذْهُ)؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ عملَ الآجُرَّ، فهو يُعلِّمُهُ الصَّنعةَ بذكرِ كيفيَّتِها؛ ولأنَّ الطّينَ أنسبُ بفصاحةِ القرآنِ[2]؛ لأنَّ كلمةَ الآجُرِّ ونحوها: كالقرمدِ والطّوبِ، كلماتٌ مُبتذَلةٌ[3]، والطّينُ أخفُّ وأفصحُ[4]، ولإظهارِ تعاظمِهِ بهذا الأمرِ؛ لأنَّ إيقادَ النّارِ على الطّينِ أمرٌ هيِّنٌ حقيرٌ يَقْدِرُ عليهِ العجائزُ والصِّبيانُ، فيكونُ الأمرُ بهِ مبنيًّا على عدمِ الاعتدادِ بهِ، ولأنَّ طَبْخَ الآجُرِّ صنعةٌ خسيسةٌ، لا يليقُ بالملوكِ وعُظَماءِ النّاسِ أنْ يأمُروا بها، ويذكُروا اسمَها على ملأِ النّاسِ[5]، وإنَّما سوَّغَ التَّعبيرَ عن الآجُرِّ بالطّينِ أنَّهُ قِوامُ صنعِ الآجُرِّ، وكأنَّهُ لم يأمرْهُ ببناءٍ مِنْ حجرٍ وكِلسٍ؛ قصدًا للتَّعجيلِ بإقامةِ هذا الصَّرحِ المرتفعِ؛ إذ ليسَ مطلوبًا طولُ بقائِهِ بإحكامِ بنائِهِ على مرِّ العصورِ، بل المرادُ سرعةُ الوصولِ إلى ارتفاعِهِ، كي يشهدَهُ النّاسُ، ثمَّ يُنقَضُ مِنَ الأساسِ[6].

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلطِّينِ﴾:

جنسُ الطّينِ قِوامُ صنعِ الآجُرِّ المعروفِ منذُ زمنِ فرعون

جاء تعريفُ لفظ ﴿ٱلطِّينِ﴾ بـ(أل)، في قولِهِ سبحانَهُ حكايةً عن فرعون: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، وهو للجنسِ، أي: (أوقِدْ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 521.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 414.
(3) ابن الأثير، المثل السائر: 1/ 200.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 122.
(5) زاده، حاشية على البيضاويّ: 6/ 451.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 122.

لي على هذا الجنسِ المُسمَّى بالطّين)[1]، الَّذي يُصنَعُ لَبِنًا، ثُمَّ يُطبَخ آجُرًّا[2]، قال مقاتل: وكان فرعون أوَّل من طبخ الآجرَّ، وبنَى به، وبذلك قال: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾، أي: قصرًا طويلًا مشرِفًا كالمنارة[3]، ولكنَّ بنيانَهُ ذاك كان عَبَثًا، فذهب أدراجَ الرّياحِ.

بلاغةُ إسنادِ الإيقادِ إلى هامانَ:

الـوزيـرُ منـفِّـذٌ لأوامـرِ فرعـون بواسطةِ أعوانِهِ، لا بعمل يده

إسنادُ الإيقادِ على الطّينِ إلى هامانَ في قولِ فرعون: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ مجازٌ عقليٌّ، باعتبارِ أنَّهُ الَّذي يأمرُ بذلكَ، كقولِهم: بنَى المنصورُ بغدادَ، وكانَتْ أوامرُ الملوكِ في العصورِ الماضيةِ تَصدُرُ بواسطةِ الوزيرِ، فكانَ الوزيرُ هو المُنفِّذَ لأوامرِ المَلِكِ بواسطةِ أعوانِهِ، مِنْ كُتّابٍ وأُمَراءَ ووُكَلاءَ ونحوِهم، كلٌّ فيما يليقُ بهِ[4].

بلاغةُ الكنايةِ في الإيقادِ على الطّينِ:

الأمـرُ بتحضير مُـقـدِّمـات بناء الـصَّـرح يـدُلُّ عـلى الـعـنـايـة بالشُّروع فيه

أرادَ فرعونُ بقولِهِ: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أنْ يأمرَ هامانُ العَمَلةَ أنْ يَطْبُخوا الطّينَ؛ ليكونَ آجُرًّا، ويَبْنوا بهِ، وقد كانوا يَبْنونَ بالآجُرِّ بيوتَهم، فكانوا يجعلونَ قوالبَ مِنْ طينٍ يتصلَّبُ؛ إذا طُبِخَ، وكانوا يخلطونَهُ بالتِّبْنِ ليتماسكَ قبلَ إدخالِهِ التَّنّورَ، فكنَّى فرعونُ عن البناءِ بمُقدِّماتِهِ، وهي إيقادُ الأفرانِ لتجفيفِ الطّينِ المُتَّخَذِ آجُرًّا؛ للدَّلالَةِ عَلى الاستعجالِ والعنايَةِ بالشُّروعِ من أوَّلِ أوْقاتِ الأمْرِ؛ لأنَّ ابْتداءَ البناءِ يَتَأخَّرُ إلى ما بَعْدَ إحْضارِ مَوادِّهِ الأوَّليَّة؛ فَلذَلِكَ أمَرَ فرعونُ بالأخْذِ في إحْضارِ تِلْكَ المَوادِّ، الَّتي أوَّلُ تحضيرِها الإيقادُ، أيْ: إشْعالُ التَّنانيرِ لِطَبْخِ الآجُرِّ[5]، وهو يريد تحقيقَ نفي الإله الحقِّ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 62، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 6/ 451.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 122.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 608.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 122.

وإثباتَ ألوهيَّته هو في هذا الكون البديع، وفعلَ الأسباب؛ ليتوصَّل إلى إله موسى، تزويرًا منه واستخفافًا بقومه[1].

دلالةُ فاءِ ﴿فَٱجۡعَل﴾:

تسبُّبُ بناءِ الصَّرحِ عن الإيقادِ؛ إذ لا بدَّ لكلِّ مُنجَز من أسباب

الفاءُ في قولِ الباري ﷻ حكايةً عن خطاب فرعونَ لهامانَ: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾ للسَّببيَّةِ، وهي تفيدُ أنَّهُ قد تسبَّبَ عن الأمرِ بالإيقادِ على الطِّينِ الأمرُ ببناءِ الصَّرحِ[2]، وفي التَّعبيرِ بالفاءِ إشارةٌ إلى ضرورةِ المسارعةِ في العملِ، وعدمِ التَّواني فيهِ، وهي تفيدُ شدَّةَ حَميَّةِ فرعونَ، وفَرْطَ حرصِهِ على إظهارِ كذبِ موسى عليه السلام بحسَبِ زعمِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجعلِ:

الصَّرحُ مُتَّخذٌ مِنَ الطِّينِ المطبوخِ، وهو مادَّة البناء آنئذٍ

عُبِّرَ بالجعلِ دونَ غيرِهِ في قولِ فرعونَ: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾؛ لأنَّ مِنْ معاني الجعلِ في اللُّغةِ: إيجادَ شيءٍ مِنْ شيءٍ، وتكوينَهُ منهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا﴾ [النّحل: 72][3]، والصَّرحُ الَّذي أمرَ فرعونُ ببنائِهِ مجعولٌ مِنَ الطِّينِ المطبوخِ.

دلالةُ اللّامِ، وغرَضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لِّي﴾:

شدَّةُ عنايةِ فرعونَ بتنفيذِ أوامرِهِ، دليلٌ على صلابته في كفره

اللّامُ في ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾ للملْكِ والاستحقاقِ، وقد أضافَ فرعونُ الجعلَ إلى نفسِهِ إعلامًا بأنَّهُ لا بدَّ منهُ[4]؛ لكونِهِ يتعلَّقُ بهِ، ولهُ فيهِ منفعةٌ ظاهرةٌ، وقدَّمَ ﴿لِّي﴾ على ﴿صَرۡحًا﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ اعتنائِهِ بالمبادرةِ إلى تنفيذِ أمرِهِ ببناءِ الصَّرحِ ورفعِه، بحيثُ لا يكونُ في بنائِهِ تأخيرٌ ولا تقصيرٌ؛ إذ مِنْ عادةِ النّاسِ المسارعةُ في تنفيذِ مطالبِ الحُكّامِ والمُلوكِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الصَّرْحِ):

بيانُ أنَّ ارتفاعَ البناءِ يكونُ أقربَ لتحقيقِ مقصودِ فرعونَ المزعومِ

قولُهُ تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾، معناهُ:

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 616 (بتصرّف).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.
(3) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.

(فاجعلْ لي بناءً عاليًا يُتاخِمُ السَّماءَ)[1]، وقد عبَّرَ فرعونُ بلفظِ الصَّرْحِ دونَ غيرِهِ؛ لأنَّ ارتفاعَ البناءِ أقربُ لتحقيقِ مقصودِهِ مِنَ الاطِّلاعِ، بحسَبِ زعمِهِ واعتقادِهِ الفاسدِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿صَرْحًا﴾:

مطلوبُ فرعونَ بناءُ صَرْحٍ مِنَ الصُّروحِ، يحقِّق به غروره وغطرسته

نُكِّرَ لفظُ ﴿صَرْحًا﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ حكايةً عن فرعون: ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مطلوبَ فرعونَ هو بناءُ صَرْحٍ مِنَ الصُّروحِ، فيكونُ التَّنكيرُ للإفرادِ، وغاية فرعون أن يبنيَ صرحًا لم يُرَ في الدُّنيا بناءٌ أعلى منه؛ ليُظهِرَ لرعيَّته تكذيبَ موسى فيما زعمه، من دعوى إلهٍ غير فرعون[2].

دلالةُ الأداة (لعلَّ) في السّياق المحكم:

الاطِّلاعُ على إله موسى مأمولُ فرعونَ اللَّعين

(لعلَّ) في الأصلِ للتَّوقُّعِ، وهو ترجّي المحبوبِ والإشفاقُ مِنَ المكروهِ، وهي تختصُّ بالشَّيءِ المُمكِنِ[3]، واستعمالُها في قولِ فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ فرعونَ رَجا أنْ يصلَ بهذا الصَّرْحِ إلى السَّماءِ، حيثُ مَقَرُّ إلهِ موسى بحسَبِ زعمِهِ، وهذا مِنْ جهلِهِ وفسادِ تفكيرِهِ؛ إذ حَسِبَ أنَّ السَّماءَ يوصَلُ إليها بمثلِ هذا الصَّرْحِ[4]، ويحتملُ أنَّهُ قد أوهمَ قومَهُ أنَّ إلهَ موسى يمكنُ الوصولُ إليهِ، والقدرةُ عليهِ، وهو عالمٌ مُتيقِّنٌ أنَّ ذلكَ لا يمكنُ لهُ، وقومُهُ - لغَباوتِهم وجهلِهم وإفراطِ عَمايتِهم - يمكنُ ذلكَ عندَهم، ولا شكَّ أنَّهُ كانَ مِنْ قومِ فرعونَ مَنْ يعتقدُ أنَّهُ مُبطِلٌ في دعواهُ، ولكنْ يوافقُهُ مَخافةَ سَطْوِهِ واعتدائِهِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.
(2) مختصر تفسير ابن كثير: 2/ 14.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 302.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 306.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿أَطَّلِعُ﴾:

بيانُ أنَّ أملَ فرعون كان رجاء الاطِّلاعِ المذكور على لسانه

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تقدَّسَ ذكرُهُ حكايةً عن كلام فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ الاطِّلاعَ أمرٌ مستقبليٌّ بالنِّسبةِ لزمنِ كلامِ فرعونَ، وهو يرجو حصولَهُ جهلًا ومكابرةً، أو يُظهِر هذا الرجاءَ؛ تلبيسًا على قومه وإضلالًا لهم عن الحقِّ الذي جاء به موسى، فجيء بصيغةِ المضارعِ لدلالته على الاستقبالِ.

دلالةُ صيغةِ الافتعالِ في ﴿أَطَّلِعُ﴾:

مقاساةُ شدائدِ الطُّلوعِ دليلٌ على تكلُّفِ المشقَّةِ في معاندة القدرة

عُبِّرَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِ فرعون الكاذب: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكلُّف، أي: (أتكلَّفُ الطُّلوعَ)، وهو الصُّعودُ[1]؛ لأنَّ الاطِّلاعَ: الطُّلوعُ القويُّ المُتكلَّفُ لصعوبتِهِ[2]، فهو ليسَ كغيرِهِ لعُلوِّهِ[3]، وهذا التَّعبيرُ يومِئُ إلى شدَّةِ مكابرةِ فرعونَ وعنادِهِ وتجبُّرِهِ؛ إذ يُعِدُّ نفسَهُ لتجشُّمِ متاعبِ هذا الصُّعودِ المزعومِ.

دلالةُ الحرفِ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

غايةُ فرعونَ الصُّعودُ إلى إلهِ موسى؛ للوصول إلى الغاية المرتجاة

حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قولِ فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ، وهو واردٌ هنا على وفْقِ زعمِ فرعونَ واعتقادِهِ؛ إذ غايتُهُ الوصولُ إلى مكانِ إلهِ موسى تعالى اللهُ عمَّا يقول عُلوًّا كبيرًا.

بلاغةُ جناسِ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ﴾:

بينَ ﴿إِلَىٰٓ﴾ و﴿إِلَٰهِ﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ حكايةً عن فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ جناسٌ ناقصٌ؛ لأنَّ الاختلافَ بينَهما بحرفٍ، وهو الحرفُ الأخيرُ[4].

سرُّ إضافةِ ﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾:

إلهُ موسى خاصٌّ بهِ بحسَبِ زعمِ فرعونَ في ادِّعائه

تدلُّ إضافةُ ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ في قولِ فرعون: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(3) أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 385.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ على شدَّةِ تكذيبِه لموسى ﷺ في دَعوتِه إلى اللّٰه تعالى، أي: لعلّي أطَّلعُ إلى إلهِ موسى الَّذي يدعو إليهِ، فإنَّهُ ليسَ في الأرضِ أحدٌ بهذا الوصفِ الَّذي ذكرَهُ، فأنا أطلبُهُ في السَّماءِ[1]، وقد قابلَ فرعونُ بينَ كونِهِ هو إلهًا لعمومِ قومِهِ، وبينَ كونِ إلهِ موسى خاصًّا بهِ.

توجيهُ إثباتِ ﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾:

التَّناقضُ سِمَةُ المحجوجِ المخذولِ

تناقضَ فرعونُ المخذولُ بحسَبِ الظّاهرِ، فإنَّهُ قالَ أوَّلًا: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، ثمَّ أظهرَ حاجتَهُ إلى هامانَ، فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ﴾، وأثبتَ لموسى إلهًا في قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وأخبرَ أنَّهُ غيرُ مُتيقِّنٍ بكذبِه، فقالَ: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ مِنْ بابِ مُجاراةِ الخَصْمِ[3]، وإرخاءِ العِنانِ لهُ.

بلاغةُ التَّوكيدِ في جملة: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾:

اتِّهامُ أهلِ الباطلِ لأهلِ الحقِّ شديدٌ وعنيدٌ

أكَّدَ فرعونُ قولَهُ: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بحرفِ التَّوكيدِ المُعزَّزِ بلامِ الابتداءِ، لدفعِ ما استقرَّ في الأنفُسِ مِنْ صِدْقِ موسى ﷺ[4]، أو لتعليلِ الأمرِ ببناءِ الصَّرْحِ[5]، أو لينفيَ عن نفسِهِ اتِّهامَ وزيرِهِ إيّاهُ بتزلزلِ اعتقادِهِ في دينِهِ، والمعنى: أنَّي أفعلُ ذلكَ ليظهرَ كذبُ موسى[6].

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الظَّنِّ:

عقائدُ أهلِ الضَّلالةِ قائمةٌ على التَّمويهِ والمغالطةِ

استُعملَ الظَّنُّ في قولِ فرعون: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، بمعنى: القطعِ، فكانَتْ محاولتُهُ الوصولَ إلى السَّماءِ لزيادةِ تحقيقِ ظنِّهِ، أو

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 14/ 295.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 644.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 521.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 296.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 521.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

لأنَّهُ أرادَ أنْ يُقنِعَ قومَهُ بذلكَ، أو أرادَ بهذا تمويهَ الأمرِ على قومِهِ؛ ليُلقيَ في اعتقادِهم أنَّ موسى ادَّعى أنَّ اللّهَ في مكانٍ مُعيَّنٍ يَبْلُغُ إليهِ ارتفاعُ صَرْحِهِ، ثمَّ يجعلَ عدمَ العُثورِ على الإلهِ في ذلكَ الارتفاعِ دليلًا على عدمِ وجودِهِ أصلًا، وعقائدُ أهلِ الضَّلالِ قائمةٌ على التخيُّلاتِ الفاسدةِ، ودلائلُها مبنيَّةٌ على تمويهِ الدَّجّالينَ مِنْ زُعَمائِهم[1].

دلالةُ حرفِ ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِهِ ﷺ حكايةً عن فرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ للتَّبعيضِ[2]، والمعنى: (وإنّي لأظنُّهُ بعضَ الكاذبينَ، وجزءًا منهُم، ومُنتظِمًا في سِلْكِهم)، وكان فرعون يرمي من هذا القول إلى تخفيف أثَرِ الآيات الَّتي جاء بها موسى ﷺ في نفوس رعيَّته[3].

موسى - في زعمِ فرعونَ - مُنخرِطٌ في زُمْرةِ الكاذبينَ

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ مجموعًا:

قولُهُ ﷺ حكايةً عن فرعون الكاذب: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أبلغُ مِنْ أن يُقال: (وَإِنّي لَأَظُنُّهُ يكذبُ)، أو (وَإِنّي لَأَظُنُّهُ كاذبًا)؛ فإنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ تعريفُ الجنسِ، فإخبارُ فرعونَ عن موسى ﷺ بأنَّهُ: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يفيدُ أنَّهُ واحدٌ مِنَ الفئةِ الَّتي تُعرَفُ عندَ النّاسِ بفئةِ الكاذبينَ[4]، الَّذينَ مِنْ دَيْدَنِهم الكذبُ[5]، فيفيدُ أنَّهُ كاذبٌ إفادةً بطريقةٍ تُشبِهُ طريقةَ الاستدلالِ، فهو مِنْ قبيلِ الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِهِ، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ[6].

فرعونُ يرَى موسى مِنَ الكاذبين وهو المتألِّهُ الكذوب

سرُّ حذفِ مُتعلَّقِ الكذبِ:

جاءتِ الآيةُ الكريمة عندَ حكاية قول فرعونَ: ﴿لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بإطلاقِ الكذب، ولم يقلِ: (الكاذبينَ في دعوتهم)، أو

الكذبُ شاملٌ لكلِّ قولٍ وبلاغٍ ووحي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 196.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 3172.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 123.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 296.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 263، وكذلك طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/ 84.

(الكاذبين في ادِّعائهم الرِّسالةَ)؛ للإشارة إلى أنَّ أقوالَ الذين نُسب إليهم موسى ودعاويهم قد اصطبغَتْ بالكذبِ - في زعم فرعونَ الكذوبِ - بحيثُ لا يخلو منهُ واحدٌ منها، وحاشا أنبياء اللّه من هذا الوصف القبيح.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

ذِكـرُ الأسـبـابِ وحـذفُـهـا متـنـاسِـبٌ مع متـطـلَّـبـات الـسّـيـاق في كـلِّ آيـةٍ من السّورتَين

قالَ اللّه تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، وقالَ في سورةِ غافرٍ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: 37].

ويُلحَظُ أنَّهُ حذفَ هنا: ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36 - 37]، وذكرَهُ في غافرٍ؛ لأنَّ الذي هنا تقدَّمَهُ قولُهُ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ مِنْ غيرِ ذكرِ أرضٍ، فناسبَهُ الحذفُ، والذي هناكَ تقدَّمَهُ قولُهُ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 26]، فناسبَهُ مقابلتُهُ بالسَّماءِ[1].

وقالَ هنا: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، وقالَ في سورة غافرٍ: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ﴾ [غافر: 37]؛ لأنَّ التَّقديرَ في هذهِ السّورةِ: (وإنّي لأظنُّهُ كاذبًا مِنَ الكاذبينَ)، فزيدَت ﴿مِنَ﴾؛ لمراعاةِ رؤوسِ الآياتِ، ثمَّ أُضمِرَ (كاذبًا)؛ لدَلالةِ ﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ عليهِ؛ وفي سورةِ غافرٍ جاءَ على الأصلِ، ولم يكنْ فيهِ موجِبُ تغييرٍ[2].

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 195، وزكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 431.
(2) الكرمانيّ، البرهان، ص: 195، وزكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 431.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»